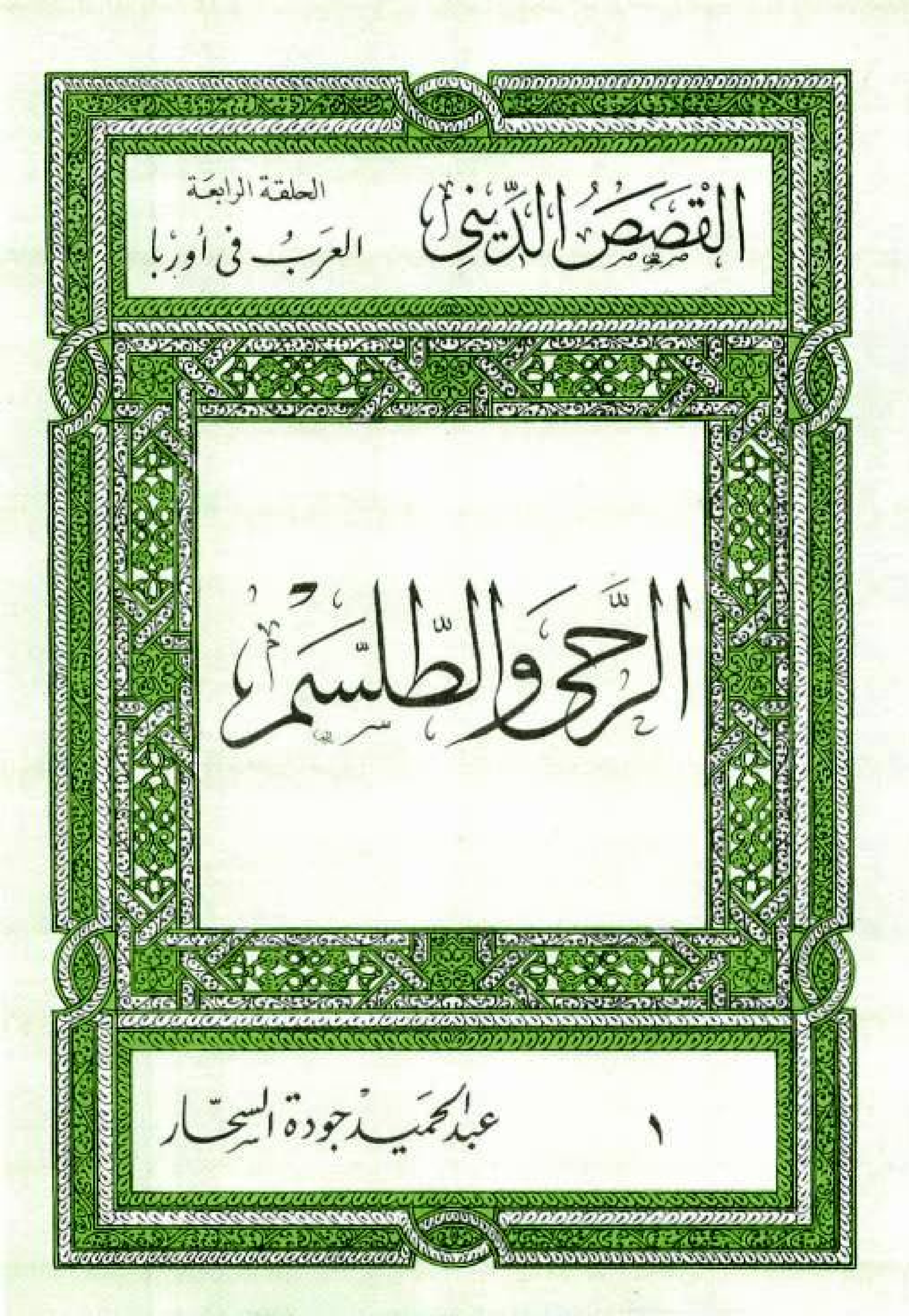

القصص الديني
الحلقة الرابعة
العرب في أوربا
الرحى والطلسم
عبد الحميد جودة السحار
١

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَفَلَمْ يَسيرُوا فى الأَرضِ ، فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم ، كَانُوا أَكْثَرَ مِنهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِى الأَرْض ، فمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يكْسِبُون ﴾ .

(قرآن كريم)

١

كـان اليونـانُ مـن قديـمِ الزَّمـان ، قَبـلَ عهـدِ الإسكندر ، يسكنون بـلادَ الشَّرق ، وكـانوا أهـلَ حكمةٍ ورأى ، يعيشـونَ فى بُحبوحـةٍ من العيـش ، يملِكـون الممـالك ، ويبسُـطونَ سـلطانَهم علـى ماجاورهم من بلاد .

ومرَّت السِّنون ، وظهرت قوَّةُ الفُرْس ، ونافسـتِ اليونـان ، وزاحمتْهـم علـى مـا كـان بـأيديهم مـن الممالك ؛ فلمَّا ضاقتْ رُقْعةُ الأرضِ أمامَ اليونـان ، انتقلَ بعـضُ المغامرين من أهلِهـا إلى الأَنْدَلُسِ ، ولم

يكنْ لها ذِكرٌ إذْ ذاك ، كانت جزيرةً لم يَمْشِ فيها العُمران ؛ فلمّا وفدَ إليها اليونانيون المتحضّرون ، وأقبلوا على عمارتِها ، فشقُّوا الأنهار ، وبَنُوا المعاقل ، وغرسوا الجنانَ والكروم ، وشيَّدوا الأَمصار ، وملئوها حَرْثًا ونسْلاً وبُنيانا .

صارتِ الأَنْدَلسُ جَنّةً فى الأرض ، وصار هَمُّ أهلِها تحصينَها وحمايتَها من إغاراتِ الأُممِ القريبةِ منها . نظروا فوجدوا أنّه لايحسُدُهم على رَغَدِ العيْش إلا هؤلاء الّذين يعيشونَ على مقربَةٍ منهم فى ضيقٍ وشِدَّة ، وهُمُ العربُ والبرْبر ، فخافوهم على جزيرتهم العامرة ، وجعلوا يُفكّرون فى حمايتها من نظرةِ الطمع ، التى تأتلقُ فى عيونهم .

٢

لم تكنِ الأندلُسُ مملكــةً واحــدة ، بــل كــانت عِـدَّةَ ممالكَ مُتجاورة ، يحكمُ كلاًّ منها ملكٌ مُســتقِلٌّ يُدبِّرُ شئونها . وكـــان بجزيــرةِ قــادس ، نواحــى غــربِ الأندلُس ، ملكٌ يونانىّ ، له ابنةٌ رائعةُ الحُسن ، غايـةً فى الجمال ، تسامَعَ بها ملوكُ الأندلسُ ، فَطمِع كـلُّ منهـم فـى أن تكـونَ زوجتَـه ، فخرجــوا إلى قــادسَ يخطُبونها .

وغَصّ قصرُ الملكِ برسُلِ ملوكٍ وفــدوا إليــه ، يَطلبونَ يدَ ابنتِه ، فلَـمْ يغتبـطْ ، واستولى عليـه قلقٌ وحيْرة ، فما كان يدرى ما يفعل ؛ خَشِىَ إنْ زوَّجهَـا

من واحد ، أسخطَ الباقين ، فيُعادونَه ، وتُصبِحُ مملكتُه هدَفًا لإغاراتِ ملوكٍ حاقدين .

ودخل على ابنتِه وهو قلِقٌ مضطرِب ، فلمَّا لَمَحتِ الحزنَ في وجهِه ، قالت :

ـ ما الَّذى يحزُنك يا أبى ؟

قال لها وهو مُطرِق :

ـ يابنيَّة ، إنِّى أصبحتُ على حَيْرةٍ فى أمرِك ممَّن يخطُبُك من الملوك ، وما أُرضِى واحدًا إلاَّ أُسخِط الباقين .

فقالت فى هدوء :

ـ اجعلِ الأمرَ إلىَّ تخْلُص .

فنظر إليها مَلِيًّا ، ثمَّ قال :

ـ وما تقترَحين ؟

٣

وخرج الملكُ إلى رُسُلِ الملوكِ مُستبشِرا ، ودفعَ إليهم بجوابِه على طلبهم ؛ فعادَ الرُّسُل إلى الملوك ، فلمَّا وقفوا على الجواب ، سكتَ منْ لم يكنْ حكيما . ولكنَّ مَلِكيْنِ من الخاطِبين ، أعادا الكتابةَ إليه ؛ فلمَّا فضَّ كتابيهْما ، وجد أنَّ كلا منهما قد كتب أنَّه الملكُ الحكيم ، الّذى تطلبُه ابنتُه ، فأصبح فى حَيْرَة ، وعاد إليه همُّه ، ودخل على ابنتِه ، وقال لها :

ـ يا بُنيَّة بقِيَ الأمرُ على إشكال ، وهذانِ ملكانِ

حكيمانِ ، أيَّهما أرضيتُ ، أسخَطتُ الآخر .

فقالت في هدوء :

ـ هوّن عليك .

ـ وماذا تفعلين ؟

قالت :

ـ سأقترحُ على كلّ واحدٍ منهما أمرًا يأتي به ، وأيُّهما سبق إلى ما التَمسْت ، كنت زوجتَه .

قال وهو ينظرُ إليها في إعجاب :

ـ ما الَّذى تقترحين عليهِما ؟

قالتْ وهي تبتسم :

ـ ألسنا محتاجِين يا أبتاهُ إلى رحًى تدور ، لطحنِ الحبوب ؟

ـ نعم .

قالت :

ـ ألسنَا محتاجينَ إلى تحصــينِ جزيـرةِ الأندلُـسِ من البربر ؟

ـ وما دخلُ الرَّحَى وتحصينِ الجزيـرة ، فـى طلـب هذينِ الملِكين ، اللّذين يدَّعيانِ الحكمة ؟

ـ إنّى مُقْترِحَةٌ على أحدِهما : إدارةَ الرَّحَى بالماءِ العذبِ الجارى إليها من ذلك الـبَرّ ، ومقْترِحَـةٌ علـى الآخَـر أن يتّخـذَ لى طِلّسْــما ، نُحصّــنُ بــه جزيـرةَ الأندلسِ من البربر .

فأشرقَ وجهُ أبيها بابتسامةٍ عريضة ، وربَّـت على كتِفِ ابنتِه فى حَنان ، وقال :

ـ بورِكَ فيكِ .

٤

وكتب إلى الملكين بما قالتِ ابنتُه ؛ فأجاباهُ إلى ذلك ، وَاختارَ أحدُهما ، إدارةَ الرَّحَى بالماء العذب ، وقبلَ الآخرُ إقامةَ طِلَّسْمٍ يحمى الأندلُسَ من إغاراتِ البربر ، الذين تأتلِقُ عيونُهم بالطَّمع فى الجزيرة .

راح الملِكانِ يعَملانِ دون كلال ، ليفوزَا بالأميرةِ الجميلة ؛ فراحَ صاحبُ الرَّحَى يقطعُ الحجارة ، ويُنضِّدُ بعضَها إلى بعضٍ فى البحرِ المالح ، الذى بين جزيرةِ الأندلسِ والبرِّ الكبير فى موضع زُقاقِ سَبْتَة ؛ فلمَّا تَمَّ تنضيدُ الحجارةِ للملكِ الحكيم ، جَلَبَ الماءَ العذبَ من جبلٍ عالٍ فى البرِّ الكبير ، وسلَّطه من

ساقيةٍ مُحكمَة ، وبنى بجزيرةِ الأندلُسِ رحًى على هذه السَّاقية .

وأمَّا صاحبُ الطِّلَّسم ؛ فراح يرصُدُ النُّجوم ، ثمَّ ابتَنى بنُيانًا مُربَّعا من حجرٍ أبيض ، على ساحلِ البحر ، في رملٍ مُتراكم ، حَفَر أساسَه ، إلى أن جعلَه تحتَ الأرضِ بمقدارِ ارتفاعِهِ فوقَ الأرض ليثبُت ؛ فلمَّا انتَهى البناءُ المربَّعُ إلى حيثُ اختار ، صَوَّرَ من النُّحاسِ الأحمرِ والحديدِ المُصفى ، المخلوطين بأحكمِ الخَلْط صورةَ رَجُلٍ بربريٍّ لهُ لِحية ، وفي رأسِه ذُؤَابةٌ من شعرٍ جعْد ، وهو متأبِّطٌ بصورةِ كِساءٍ قد جمعَ طرَفَيْهِ على يدِهِ اليُسرَى ، بألطفِ تصويرٍ وأحكَمِه ، في رجلِهِ نَعْل ، وهو قائمٌ من رأسِ البِناء على مكانٍ عالٍ بمقدارِ رِجْليه فقط ،

وهو شاهقٌ فى الهواء ، طوله يزيدُ على ستّينَ أو سبعينَ ذِراعا ، وقد مدَّ يَده اليُمنَى بمفتاحِ قُفْلٍ قابض عليه ، مُشيرًا إلى البحر كأنه يقول : لاَ عُبُور .

وكان تصميمُ التِّمثالِ بحيثُ إذا جرتْ فى البحرِ سفينةُ بربر ، يسقُط المِفتاحُ من يدِه ، فيستعِدُّ أهلُ الأندلُسِ لملاقاةِ الغازى المُغير .

٥

راحَ الملِكانِ يتسابقانِ ليفوزَ كلٌّ منهما بالجميلة ، التى كانتْ محطَّ أنظارِ كلِّ الملوك . وفَرغَ صاحبُ الرَّحى أوّلا ، وهُرعَ إلى الملكِ يَزُفُّ إليه النَّبأ ، ودخل الملكُ على ابنتِه ، وقال لها :

- لقد فرَغَ صاحبُ الرَّحى من عملِه .

فقالت الابنة :

- أخفِ أمرَهُ على صاحِب الطِّلَّسم .

فقال الأب فى دَهَش :

- لماذا ؟

- لئلاَّ يترَكَ عملَه ، فيبطُلَ الطِّلَّسم ، لنحظَى بالرَّحَى والطِّلَّسمِ معًا .

فقال الأبُ فى حيْرَة :

- وكيف نحتفِظُ لصاحبِ الرَّحَى بحقِّ سبقِه ؟

فقالت فى ثِقَة :

- ما أيسرَ ذلك ! تُعلنُ عن الرَّحَى فى صباحِ اليوم الَّذى يفرُغُ صاحبُ الطِّلَّسم فى آخرِه .

فقال الأبُ فى فرح :

- إنَّك أحكمُ منهْما يابُنيَّة .

٦

وعكفَ صاحبُ الطِّلّسم على عملِه حتى أتمَّه ، ولم يبقَ إلا بياضُ نهارٍ ليفرُغَ منه ؛ فبعثَ الملكُ إلى صاحبِ الرَّحَى أن أعلن عن فوزِك ، فأسرعَ إلى عملِه ، وأجرى الماء فى الجزيرة ، وأدارَ الرَّحَى ، واشتهرَ ذلك ، وذاعَ أمرهُ ، وتحدَّثَ الناسُ عن فوزِ صاحبِ الرَّحى بالأميرةِ الجميلة .

واتَّصَل الخبرُ بصاحبِ الطِّلَّسم ، وهو فى أعلى القُبَّة ، يصقلُ وجه التّمثال ، فلمَّا تحقَّقَ أنَّه مسبوق ، ضعُفتْ نفسُه ، فسقطَ من أعلَى البناء ميِّتا .

وتزوَّجَ صاحبُ الرَّحَى الأميرة ، وفاز بالجميلةِ

والرَّحَى والطِّلَّسم .

ومرَّتْ سِنونٌ والأندلُسُ في مأمنٍ من غارات البربر ، ثم رُؤِى وضعُ الطِّلَّسم في تابوتٍ من الرَّخام ، نُقل إلى بيتٍ في « طُلَيْطِلَة » ، ووُضع على ذلك البابِ قُفل ، وأصبحتِ التَّقاليدُ تقضى أن يَضعَ كلُّ ملكٍ يعتلى المُلك ، قُفْلا على ذلك الباب ، تأكيدًا لحفظِ ذلك البيت .

وحانَ وَقتُ دخول العَربِ والبرْبرِ الأندلسُ ، واقتعدَ أريكةَ المُلكِ ملِك ، طمِعَ في البيتِ المُحاطِ بالأسرار ، فعزمَ على أن يقتحمَ عليه قَداستَه ، فأمرَ بفتحِه ؛ فلمَّا تمَّ له ما أراد ، كان ذلك إيذانًا بانقراضِ دولتِه ، ودخولِ العرب إلى الأندلُس ، ليمكُثوا بها ما شاءَ اللّهُ لهم أن يمكُثوا .